الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي ١٥٠٠ - ١٦٠٠م.

عماد أحمد الجواهري *

تمهيد : —

احتفظت البصرة — مركز الولاية التي اطلقت على القسم الجنوبي من العراق العربي كما كان يسمى حينذاك — على مر الزمن بعلاقات سياسية واقتصادية وطيدة مع انحاء العراق كافة وخاصة بغداد . فلما سقطت الاخيرة بيد المغول عام ١٢٥٨ م انتقلت السيادة على البصرة الى القوى السياسية الاجنبية التي تسلطت على البلاد ، وخضعت في احايين متعددة الى قوى محلية . وجدير بالملاحظة ان نفوذ حكومة بغداد الذي كان يمتد نحو الولايات المجاورة اعتمد الى حد بعيد على قوة ونفوذ تلك الحكومة (١) .

ازدهرت مدينة البصرة خلال العصور الوسطى واشتهرت بأنها مركز تجاري مهم على رأس الخليج العربي ، وكانت تتصل بالصين والهند برا وبحرا كما تتصل بالشام واسيا الصغرى . (٢) وكان التجار يحملون على تجهيزاتهم من البضائع المحملة على المراكب القادمة من الهند الى الخليج . وفي البصرة كانت تلك البضائع تفرغ وتحمل على القوافل التي تسلك طريق الصحراء ، او انها تنقل بواسطة قوارب صغيرة تستطيع ان تصل الى نقطة قريبة من البحر المتوسط . (٣)

ولم تقتصر البصرة على كونها مركزا لتجارة الهند على رأس الخليج فحسب بل انها احتفظت بتجارتها المحلية على مر الزمن . ففي تلك العصور كان لها علاقاتها التجارية مع بلاد الحويزة في جنوب فارس — كما ان صلاتها وتجارتها مع بغداد بقيت مستمرة هي الاخرى . (٤)

---

* يعمل مدرسا مساعدا في قسم التاريخ بكلية الاداب جامعة الموصل منذ سنة ١٩٧٦ .

— حصل على درجة الماجستير في التاريخ الحديث من جامعة بغداد عام ١٩٧٥ .

— عمل في التدريس الثانوي لمدة عشر سنوات ثم دخل سلك التدريس الجامعي .

من مؤلفاته :

— «احوال بغداد في عهد الخواجة مرجان». **مجلة بين النهرين** . العدد الرابع ، ١٩٧٧ .

— « حول الثقافة والفلسفة التربوية الصهيونية ومواجهتها » . **مجلة الجامعة** ، العدد الخاص بالمؤتمر الفكري لمكافحة الصهيونية ، بغداد ١٩٧٧ .

واستفادت القبائل العربية في المنطقة من مرور التجارة العالمية والمحلية على السواء ، فالقوافل التي تسلك طريق الصحراء كانت تضطر الى تقديم عمولة على جمالها المحملة بالبضائع فضلا عن استخدام افراد من هذه القبائل كادلاء ومرشدين وحراس (٥) ، وذلك على طول الطريق بين البصرة وحلب . اما أعراب الحويزة والفرات فقد دابوا على فرض الاتاوات على القوافل والمراكب المحملة بالبضائع السائرة بين الحويزة والبصرة او بين بغداد والبصرة، كما ان تلك القبائل لم تكن تتردد في مهاجمة القوافل اذا وجدت مقاومة منها (٦).

وقد تأثر العراق بالاضطراب السياسي الذي ساد القرنين اللذين اعقبا الغزو الغربي للعراق ، فشهدت أحواله الاجتماعية والثقافية والاقتصادية تدهورا « ملحوظا » ، وفي مجال التجارة والمواصلات ظهرت اهمية طرق الاناضول ـــ على الرغم من صعوبتها ـــ على طريق الصحراء التي تربط وتنقل التجارة من حلب الى البصرة ومنها الى الهند وبالعكس (٧) .

ان دراسة رحلات التجار البنادقة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر توضح تلك الاهمية التي تمتعت بها طرق الاناضول باعتبارها طريقا تجاريا منافسا للطريق الصحراوي . ويلاحظ فيها ايضا علاقات واسعة بين البنادقة والدولة القائمة في المنطقة . (٨) وقد وصف هؤلاء الرحالة باسهاب تجارة تبريز الواسعة مع حلب والبحر المتوسط ومع المراكز التجارية الاخرى الواقعة على الطريق المذكورة (٩) .

ومن الملاحظات السابقة يبدو ان تجارة البصرة ظلت قائمة طوال العصور الوسطى . وان تلك التجارة كانت تستند على اسس ثلاثة هي تجارة البصرة مع بلاد فارس وتجارتها المحلية مع انحاء العراق واخيرا توسطها في تجارة حلب والهند والخليج العربي . ونظرا لظروف العراق غير المستقرة في اواخر العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة وبناء على ما ذكر من تطور منافسة طرق الاناضول فان تجارة البصرة تأثرت بشكل ملحوظ .

أوضاع البصرة السياسية في مطلع القرن السادس عشر .

في مطلع القرن السادس عشر قام الصفويون باسقاط دولة الاق قوينلو الخروف الابيض) واحتلوا بغداد في عام ١٥٠٨ ثم اخضعوا بقية الانحاء العراقية لتي كانت عموما تخضع لسيطرة العشائر او قوى محلية من بقايا الدول لسابقة .

وكانت البصرة قد وقعت في قبضة المشعشعين (١٠) وذلك في عهد السيد حسن بن السيد محمد المشعشعي المتوفي عام ١٥٠٨ . (١١) . ومن طريف ما

يروى عن سيطرة المشعشعين على مدينة البصرة ان الشيخ عيسى بن محمد الاعمى ـ من قبيلة ال عزى المنسوبة لعشائر المنتفك ـ انتزع المدينة من المشعشعين فقرر السيد محسن المشعشعي استعادتها على اية حال ، وقرر القائدان ان يتنازلا في حومة الوغى في عملية هدفت اطلاق يد المنتصر في مدينة البصرة . (١٢)

لم يهنأ السيد المشعشعي بنصره وسيطرته على البصرة طويلا فقد اصيب المشعشعون بكارثة كبيرة نتيجة محاولة الشاه اسماعيل الصفوي القضاء عليهم (١٣) ، وهكذا وقعت المدينة في قبضة القبائل مجددا واسست في البصرة حكومة محلية ما زال الكثير من تنظيماتها يكتنفه الغموض (١٤)،غير ان المعروف في المصادر التاريخية ان ال علیان ـ وهم من قبائل المنتفك ايضا ـ تولوا امارة تلك الحكومة التي ذكر انها تبعت الحكم الصفوي بصورة اسمية .(١٥)

تاثر البصرة بحصار البرتغاليين .

يرى الكتاب والباحثون (١٦) ان البصرة لم تشهد طوال تاريخها عهدا انحسرت فيه تجارتها كالعهد الذي شهدته خلال النصف الاول من القرن السادس عشر ، وقد بدأ ذلك خلال الربع الاول من ذلك القرن بعد ان سيطر البرتغاليون على مداخل الخليج العربي . فما ان حلت سنة ١٥١٥ ، وهي السنة التي سيطروا فيها على هرمز (١٧) حتى اصبحوا يتحكمون تماما في طريقي التجارة العالمية اللذين يربطان بلاد الهند بأوروبا عبر البحر الاحمر ومصر ـ الطريق الاول ـ وكذلك عبر الخليج العربي ثم العراق والشام ـ الطريق الثاني ـ بعد ان نجحوا في السيطرة على المضائق والقلاع المطلة عليهما . (١٨) ونظرا لغياب المنافسة البحرية انذاك ، فقد اصبح البرتغاليون سادة المنطقة ووضعوا ايديهم على تجارة الهند وجنوب فارس . ومعروف ان ذلك ادى الى تحول التجارة من طرقها التقليدية عبر الشرق الاوسط الى الطريق الجديد المار عبر راس الرجاء الصالح (١٩) ، مما كان له اسوأ الاثر على اوضاع السكان في العراق والشام ومصر (٢٠) . وفي ظل ضعف الامكانات الاقتصادية للبلاد العربية يومذاك ، انحسر دورها السياسي مؤقتا .

من الطبيعي ان تتأثر تجارة البصرة بهذا التحول ، فالبصرة التي ربطت نفسها حينذاك بتجارة الخليج والهند اكثر من اي مكان اخر شهدت تجارتها جزرا مهما . ومع ذلك فقد وقف البصريون صامدين امام الاجراءات البرتغالية لفترة غير قصيرة ، وقد ساعدهم على ذلك ، بالرغم من ظهور اهمية الطرق التجارية البرية التي نقلت التجارة بين الهند واوروبا عبر شمال فارس والاناضول والشام ، (٢١) العلاقات التجارية القديمة بين العراق وفارس والروابط الوثيقة بين البصرة وبغداد . على ان الامر الذي يؤسف له هو انه

ندما تقدم النفوذ العثماني في العراق اقتضت مصلحة الصفويين ـــ الذين كانوا تنـــازعون السيادة على الحويزة وجزء من منطقة شـــط العـــرب مـــع لقبائل العربية ـــ ان يتحالفوا مع البرتغاليين لمجابهة العثمانيين والتضييـــق ليهم . (٢٢) وقام العثمانيون من جانبهم بملاحقة التجار الذين يتاجرون مـــع لعراق الصفوي انذاك فانعدمت التجارة بين سورية والعراق . (٢٣) وبسبب ذا الموقف الجديد وذلك الحصار البرتغالي قيل ان البصرة لم تعد اكثر مـــن رية جرداء . (٢٤)

لبصرة والاحتلال العثماني لبغداد :

في ضوء تلك الحقائق التاريخية السابقة يمكن تفسير بعض التطـــورات سياسية المهمة التي شهدتها منطقة الخليج العـــربي . فـــولاية البصرة التي شرنا الى ان حكومة محلية بزعامة الشيخ راشد بن مغامس ال عليان كانـــت سير الامور فيها ـــ قد يصح القول انها أضحت اكثر مناطـــق العـــراق تأثرا تائج التحالف الفارسي ـــ البرتغالي وخاصة الحصار الاقتصادي الذي وضع د العثمانيين . ولما كانت ايرادات شيوخ القبائل تعتمد الى درجة كبيـــــــرة لى اموال التجار وقوافل المسافرين من البصرة والقادمين اليها (٢٥) ، لـــذا ن شيخ البصرة راشد بن مغامس حاول في بداية الامر الاذعان لسيطرة الفرس سمية (٢٦) املا منه في الحفاظ على العلاقات التجارية التي تربط البصرة لاد فارس ـــ غير انه لم يابث طويلا على سياسته تلك فقد سقطت بغداد بيد عثمانيين عام ١٥٣٤ واعلنت لهم سائر البلاد العراقية الخضوع والطاعة ، ا كان من الشيخ العربي الحاكم في البصرة الا ان اتجه نحو العثمانيين .(٢٧) بدو ان الشيخ راشدا اراد من اعلان ولائه للسلطان العثماني جر الـــدولة عثمانية باعتبارها اعظم قوة برية يومذاك الى راس الخليج لتقوم بدور اقصاء فوذ البرتغالي وكسر الطوق المفروض على تجارة المشرق العربي . وبالرغم ن البصرة لم تسلم من العدوان البرتغالي المباشر ـــ اذ توغلت نحوهـــا عات بحرية برتغالية في ثلاثينات القرن السادس عشر وعمدت الى احراق رى وتدمير البيوت . فان شيخ البصرة استمر في رفض مساومة البرتغاليين ٢) . كما انه ضرب بشروطهم حول التجارة في المنطقة عرض الحائط (٢٩).

تكون اهمية اعلان شيخ البصرة ولاءه للسلطان العثماني في ان ذلك يقف لا مهما على استباء القوى المحلية من الظروف القائمة عموما بما فيهـــا حالف القائم بين البرتغاليين والفرس . اذ بالرغم من قوة التحالف الفارسي رتغالي في الخليج العربي يلاحظ ان قوى محلية اخرى كانت قد حذت حذو خ البصرة وارسلت تطلب حماية العثمانيين . وقد حصل ذلك مع كل مـــن خي القطيف والبحرين (٣٠) ووالي الحويزة مبارك بن مطلب . (٣١)

ان السنوات العشر التي تلت سقوط بغداد بيد العثمانيين كانت مليئة بأحداث الساحة الاوروبية التي شغلت العثمانيين وجعلتهم على ما يبدو غير مكترثين بايالات العراق النائية ، كما ان شيوخ العشائر المتنفذة في منطقة البصرة الذين استخفوا بحكومة السلطان في العراق — بعد ان تعرفوا على حقيقة أمرها — عمدوا الى قطع علاقاتهم بباشوات بغداد وعزموا على اتباع وسائلهم القبلية الخاصة في معالجة الظروف السيئة التي الت اليها قبائلهم . وهكذا لم يكن امام شيوخ المنطقة غير مقابلة عدم اكتراث السلطات العثمانية بأسلوب السيطرة على اخر مصادر الثروة في المنطقة . لذا فقد ذكر ان البصرة اصبحت مركزا للشيوخ العصاة ومأوى للعابرين والخارجين على السلطات . (٣٢) وصارت القبائل تغير على المدن وتنتزع ما يمكن انتزاعه منها وبالرغم من أن حالة الشيخ راشد لم تكن أحسن من حالة تلك القبائل ، فليس هناك ما يشير الى اتصاله بالبرتغاليين ، وهو ما فعله عدد من شيوخ منطقة الخليج . (٣٣) الا انه — شيخ البصرة — عمد الى فرض ضرائب فادحة على اهالي المدينة لاخراج ما تبقى مما اكتنزته البصرة من ثروة تجارتها السابقة وعزها القديم .

حملة عثمانية على البصرة :

بلغت الدولة العثمانية الانباء المقلقة عن اضطراب الامن في البصرة واطرافها فقررت بشكل مفاجيء تجريد حملة كبيرة عام ١٥٤٦ ، وكان ظاهر الحملة انها ترمي الى ايقاف شيخ البصرة المتمرد عند حده ! وقد سارت الحملة التي اناطت الدولة قيادتها بوالي بغداد اياس باشا ، برا وكان يعززها أسطول نهري مؤلف من ثلاثمئة سفينة قيل انها كانت تنقل الذخائر والمؤن وتروي بعض المصادر العثمانية ان الحملة انزلت بالشيخ المتمرد واتباعه خسائر فادحة عند منطقة الجزائر — هور الحمار — (٣٤) ، ودخل اياس باشا البصرة وامر بالغاء الضرائب التي درج الشيخ راشد علي جبايتها والاكتفاء بجباية الضرائب الشرعية . (٣٥)

لم تكن أوضاع البصرة والمناطق المحيطة بها طارئة في عام ١٥٤٦ بل كانت سمة عامة تميزت بها البلاد العراقية خلال قرون عديدة انتشرت خلالها اعمال قطع الطرق وشن الغارات على المدن والاخلال بالامن . ولم يتأت للعثمانيين السيطرة على الموقف سيطرة تامة مطلقا . (٣٦) اذن ما هي قيمة الاجراء الذي قيل ان العثمانيين قاموا به ضد القبائل ! ؟ لا يمكن القول قطعا بأن الهدف الشامل من حملة اياس باشا هو تقويض حكم آل عليان من البصرة ، انه كان ايضا بداية لعمل كبير من شأنه ابعاد البرتغاليين عن المياه العربية (٣٧) وتأمين الاتصال بالهند من جهتي مصر والبصرة . (٣٨)

الجهود العثمانية في الخليج العربي .

لا ريب في ان السلطات العثمانية كانت تفكر جديا بدخول المعمعة ضد البرتغاليين في الخليج العربي . لا سيما وان الحصار الذي ضربه البرتغاليون على البصرة وطرق تجارة الخليج ادى الى تعطيل المنافع والتجارة العثمانية(٣٩) كما شجعها على ذلك استياء القوات المحلية الخليجية بسبب تدخل البرتغاليين وخشونتهم (٤٠) ، وكذلك تقديم بعض القوى المحلية ولاءها للسلطان العثماني واستنجادها بالحماية العثمانية ومع ذلك فان الظروف السلبية كانت هي لاخرى قوية ويمكن تلخيصها بقوة الوجود البرتغالي في الخليج والبحار العربية لمجاورة وعدم وجود قوة عثمانية قوية في البحرين العربي والاحمر . ووجود فرس كقوة مناهضة للعثمانيين في المنطقة وضعف امكانات القوات العربية لمحلية في الخليج وخاصة على الساحل الغربي منه حيث لم تكن الاوضاع لسياسية ولا الظروف الاقتصادية والامكانات البشرية في الجزيرة العربية شكل ثقلا او قوة مهمة يمكن للقوى المحلية في الخليج الارتكاز عليها . وهذه لعوامل مجتمعة تفسر في الحقيقة اسباب تأخر النشاط الفعلي للعثمانيين في لخليج العربي حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ثم اكتشاف لعثمانيين اهمية الدور الذي يمكن للبصرة ان تلعبه في هذا المجال . فالبصرة تي كانت منذ القديم ثغرا لتجارة العراق (٤١) وجدت كل بلاد ما بين النهرين مثا استراتيجيا لها ، وقد ساعدها ذلك على الصمود بوجه البرتغاليين اولا ثم جع العثمانيين على اعتمادها نقطة انطلاق في كفاحهم ضد البرتغاليين وهو ر لم يكن بوسع اي ثغر من ثغور الخليج ان يؤديه بفاعلية واستمرار .

عندما توجت الجهود العثمانية في البحر الاحمر باسترداد عدن عام ١٥٥ صارت منطقة الخليج العربي مركزا اعتصم فيه البرتغاليون ، فاندفعت دولة العثمانية لاعتماد البصرة في مجهود حربي بحري جديد ذكر ان الهدف ه هو فتح الطريق نحو مصر . (٤٢)

ضمن ذلك المجهود الاخير كان القائد البحري العثماني بيري ريس قد كن عام ١٥٥١ من السيطرة على مسقط وجزيرة هرمز ودراخت . ولكنه آثر نسحاب بعد سماعه أنباء متعلقة عن قدوم اسطول برتغالي كبير . (٤٣) وفي م ١٥٥٢ وصل البصرة في اسطول كبير القبودان مراد بك وكان اسطوله لف من سبعين سفينة ، ولكنه قرر الخروج في سبع عشرة سفينة فقط تاركا سفن الاخرى في البصرة وعند هرمز اصطدم بالاسطول البرتغالي الذي ن من الحاق الهزيمة به كما اخطره الى الانسحاب الى البصرة . (٤٤) وفي م ١٥٥٣ اسندت السلطات العثمانية قيادة اسطولها في الخليج العربي الى دي علي ريس . (٤٥) وقد خرج سيدي علي بالاسطول العثماني من البصرة

والتقى بالبرتغاليين في هرمز ويقال انه « انتصر عليهم نصرا مبينا » (٤٦) . ولكن ظروفا جوية عاصفة اعاقت جهوده وحملت الامواج العابثة ما تبقى من اسطوله الى بلاد الهند . وهناك قرر بيعها لمصلحة السلطان ثم العودة الى الاستانة . (٤٧)

وعلى الرغم من فشل العثمانيين في منطقة الخليج وتعرضهم للهزائم المتوالية الا انهم ظلوا مصدر تهديد دائم للبرتغاليين . ويروي لونكريك ان اسطولا عثمانيا وصل الى البحرين التي كان يحكمها شيخ تابع لهرمز وذلك في سنة ١٥٥٩ فهرعت لمقاومة الاسطول العثماني قوتان احداهما فارسية والثانية برتغالية استقدمت على عجل من هرمز فاضطر العثمانيون الى الاستسلام . (٤٨) كما فشل في عام ١٥٨١ قائد بحري عثماني في الاحتفاظ بمسقط بعد أن انتزعها لفترة قصيرة من البرتغاليين . (٤٩)

تقويم الجهود العثمانية في الخليج العربي .

يمكن القول ان الجهود العثمانية المتعثرة حققت نتائج مشجعة واستطاعت تأمين البضائع الشرقية للعراق وسورية بواسطة الخليج . وصارت بلاد الشام تستقبل القوافل والمراكب القادمة من العراق وهي تنقل ما حملته سبل التجارة من فارس والجزيرة العربية والهند كاللؤلؤ ، والقهوة والتوابل . (٥٠)

وبالرغم من الجهود العثمانية المذكورة فان النفوذ البرتغالي كان ملحوظا في منطقة الخليج العربي طوال القرن السادس عشر . وقد اخفقت في غضون ذلك محاولات عثمانية متعاقبة لتحطيم الطوق الذي فرضه البرتغاليون على التجارة السائرة الى بلاد ما بين النهرين ومصر .

غير ان واقع تجارة البصرة التي شهدت هي الاخرى ازدهارا ملحوظا في النصف الثاني من القرن السادس عشر (٥١) يجعل الباحث يتصور بأن قبضة البرتغاليين بدأت تتراخى في منطقة الخليج العربي ثم ضعفت تدريجيا في نهاية القرن المذكور .

والواقع ان تراخي قبضة البرتغاليين خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر يبدو مسألة مهمة في ظل تزايد النشاط العثماني في الخليج العربي من جهة وتصدع الجبهة البرتغالية الفارسية من جهة اخرى . فالسياسة الجديدة التي اتخذتها السلطات العثمانية في النصف الثاني من القرن السادس عشر اقتضت شن هجوم كاسح ضد الفرس حلفاء البرتغاليين وذلك في عام ١٥٥٤ خاصة وان الفرس قاموا خلال الفترة السابقة بالتوسع على طول الحدود المشتركة مع الدولة العثمانية . (٥٢) وقد اتت تلك الاستعدادات العثمانية بنتائج سريعة اذ ارسل الشاه طهماسب وفدا الى السلطان العثماني سليمان القانوني طلب فيه عقد الصلح . وقد اجابه السلطان الى ذلك وعقدت

ين الطرفين معاهدة اماسية عام ١٥٥٥م (٥٣) اعادت السلام بين الدولتين سمحت للرعايا الفرس بالسفر الى البلاد التابعة للدولة العثمانية . (٥٤)

ان عودة السلام بين الدولتين اتاح للعراق بوجه عام وللبصرة بوجه خاص رصة جديدة لاعادة النشاط التجاري مع بلاد فارس والبلاد المطلة على الخليج . كما اتاح للبصرة اختراق الحصار البرتغالي الذي لم يعد طوقه محكما.

طور تجارة البصرة في النصف الثاني من القرن السادس عشر :

مكنت الظروف التي سبقت الاشارة اليها ، البصرة من ان تستعيد مكانتها تجارية بشكل تدريجي وتفيد المعلومات التي اوردها بعض الرحالة الذين صلوا البصرة في النصف الثاني من القرن السادس عشر هذه الحقيقة التي نحاول بحثها ، ونعني بها الازدهار التجاري الملحوظ . فقد اشار الى ذلك بصر فردريك في رحلته عام ١٥٦٣ وجود الدرد ورالف فيش في عام ١٥٨٣ (٥٥) ا آرتر ادوارد ممثل الشركة المسكوفية في بلاد فارس الذي وصل المنطقة خلال ذه الفترة فقد اشار هو الاخر الى وفرة السلع وخاصة التمور . وجديرة لملاحظة حقا تلك الدعوة التي يوجهها الى انكلترا لكي تتجه بتجارتها نحو هذه بلاد (٥٦) .

وفي رحلة جان ڤان لنشجتن الذي تجول في الخليج العربي في الفترة ١٥٨ — ١٥٨٨ اشارات مهمة عن فعاليات القراصنة في الخليج وترصدهم سفن التجار البصريين الذاهبين الى هرمز . (٥٧) وينقل عن جون الدور قوله ن السفن المحملة باللؤلؤ كانت تشق طريقها من هرمز الى البصرة . كما سلها البضائع الهندية المختلفة كالتوابل والبهارات والاقمشة (٥٨) .

ووصف رالف فيش وقيصر فردريك البصرة بأنها مدينة ذات تجارة عظيمة توابل والعقاقير التي تأتي من هرمز ، كما اشارا الى وجود مخزن عظيم حبوب والرز والتمر وهي محاصيل قالا انها تنمو بكثرة في هذه البلاد (٥٩)(٦٠).

اما باريت فقد قدم تقريرا مهما عن العملات والاوزان والمكاييل المستعملة البصرة خلال الفترة المشار اليها مع نظائرها المستعملة في حلب وهرمز لبندقية . (٦١)

سلطات العثمانية والتجارة العربية في الخليج .

بعد ان ترسخ الوجود العثماني في البصرة عام ١٥٤٦ وجهت السلطات شمانية الى والي البصرة عامي ١٥٥١ و ١٥٧٤ فرامين تضمنت اجراءات صادية ومالية مهمة . (٦٢) وقد توخت تلك الاجراءات ما يلي : —

١ — الغاء كافة الضرائب السابقة سواء تلك التي كان يأخذها شيوخ

القبائل او تلك التي صار الولاة العثمانيون يعمدون الى فرضها على السكان على اساس التعامل السابق .

٢ ــ تخفيض نسبة تلك الضرائب في عملية يبدو انها كانت تهدف الى التخفيف عن كاهل السكان من جهة ولتشجيع التجار الذين ظلوا يعانون من فداحة الضرائب التي فرضها عليهم البرتغاليون .

لقد شملت تلك الضرائب اغلب المواد التي كانت تجارة البصرة قائمة عليها . فقد اصبحت الضريبة المفروضة على الجوخ والصناعات الصوفية والدار صيني والقرنفل والفلفل ١٥/١ بعد ان كانت ٥/١ . وفرضت ضريبة ٦٪ على الاقمشة التي تحملها القوافل الشامية كالجوخ والصوف والسجاد . ودينار ذهبي على حمل البعير الذي يأتي به الاعراب . اما السفن والقوافل القاصدة بلاد فارس ففرضت على بضائعها ضريبة قدرها ٥ ــ ١٠٪ ومثل هذه الضريبة على البضائع القادمة من الاحساء والقطيف وبوشهر . (٦٣)

لقد كانت ايرادات البصرة من هذه الضريبة كبيرة نسبيا ويشير لونكريك بوجه خاص الى مظاهر الابهة التي كان والي البصرة يتميز بها والتي كانت تعتمد على ايرادات الجمرك . (٦٤)

وتنحصر واجبات والي البصرة بشكل رئيس في الحفاظ على الامن في مدينة البصرة واطرافها . وكانت تتولى هذه المهمة حامية البصرة المؤلفة من الجنود الانكشارية . (٦٥) المتحصنة بمراكز المدينة والقلاع النهرية الساحلية . (٦٦) وهذه الامور بطبيعة الحال لازمة من اجل استمرار حركة الشحن وازدهار التجارة وتأمين رضى الناس والتجار . (٦٧) على انه اذا كان تطور التجارة ونموها في مكان ما يعكس ايضا طبيعة الحالة السياسية المستقرة التي تمر بها المنطقة المعنية ، فان ظروف البصرة السياسية في الثلث الاخير من القرن السادس عشر اظهرت استقرارا نسبيا متزايدا خاصة اذا ما قورن ذلك بالنصف الاول من القرن نفسه . فمنذ ان قام اياس باشا بقمع ثورات القبائل عام ١٥٤٦ والتي استمرت حتى خمسينات القرن فان الاستقرار والهدوء كانا ميزة الفترة التي تولى فيها كل من درويش علي المشهور بضبطه البصرة عام ١٥٦٧ ويوسف باشا جيفالزادة المعروف عند الاوروبيين بـ (سيكالا) والمشهور باصلاحاته وخاصة في مجال الري وكذلك في ضبطه للامن . (٦٨) وذكر انه لم يكن هناك امر يثير قلق (جيفالزادة) غير ما سمي بعبث اعراب الحويزة . (٦٩) وعلى كل حال فربما يكون ازدهار المنطقة الجديد قد اطمع قوى جديدة تصورت ان بامكانها ان ترث موقع البرتغاليين . وكانت المنطقة منذ عهد غير قريب هدفا لاطماع الفرس . لذا فان حملات والي البصرة الرامية الى توطيد

الامن والاستقرار في الولاية واطرافها دفعت به في النهاية للاستيلاء على مدينة دسفول وعدد من القلاع المجاورة لها . (٧٠) وعاشت البصرة « اخيرا » اياما زاهية منذ حوالي نهاية القرن السادس عشر ــ ١٥٩٦ ــ حين ابتدأ افراسياب (٧١) حكم الاسرة الشهيرة والذي امتد الى حوالي منتصف القرن السابع عشر .

الخاتمة :

اظهرت الحقائق السابقة دور البصرة كمركز تجاري على الخليج . اشارت الوقائع والادلة التاريخية الى صمود البصرة امام الغزاة البرتغاليين م اضطلاعها بمهمة طرد الوجود البرتغالي واخيرا المحاولات الناجحة لحفظ لامن والاستقرار في منطقة الخليج ، مما يتفق من ناحية السياق التاريخي مع همية وضرورة الدور الذي يؤديه العراق في منطقة الخليج العربي .

الهوامش والمصادر :

(١) ــ لزيادة المعلومات عن هذه الفترة انظر : عبد الله بن فتح الله البغدادي . **التاريخ لغياثي** . دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني ، بغداد ١٩٧٥ . عباس العزاوي . **تاريخ عراق بين احتلالين** . ج٣ ، بغداد ، ١٩٣٩.

(٢) ــ د. نعيم زكي فهمي . **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب اواخر العصور وسطى** . القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ١٢٢ .

(٣) ــ Arnold Wright. Early English Adventurers in the East. London:191 P. 242.

(٤)ــ ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الطنجي (ابن بطوطة) **تحفة النظار في غرائب الامطار وعجائب الاسفار** . بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٢١ .

(٥) ــ Marco Polo. The Travels of Marco. London: 1858, P. 30.

(٦)ــ ستيفن همسلي لونكريك . **اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث** . ط ٥ ، بغداد ، ٤٨ .

Carleton S. Coon. The Story of Middle East. New York: PP. 338-3:

(٧) ــ C.R. Grant, The Syrian Desert. Caravans and Travels. London: 19 PP. 82 - 88.

(٨) ــ الدول والامارات القائمة في شيراز وتبريز وازرنجان وديار بكر وهي من بقايا الاقوام المغوليـــة والتركمانية والفرس .

(٩) ــ

Travels of Venctians in Persia. Translated and Edited by Charles Greey. London : 1873.

ولاغراض البحث انظر : ــ

The Travel of Merchant in Persia: A Narrative of Italian Travels in Persia. PP. 142-143.

(١٠)ــ نسب الى د. مصطفى جواد قوله :

« المشعشعون منسوبون الى المشعشع ، اسم فاعل من شعشع نوره اي انتشر وسطع » . وهناك مصادر مهمة تبحث عن تاريخهم ، انظر على سبيل المثال : الغبائي . **المصدر السابق** . ولاغراض البحث اعلاه ، ص ٢٧٣ هامش رقم (٤) .

(١١) ــ العزاوي . **المصدر السابق** . ص ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ .

(١٢)ــ محسن الامين . **اعيان الشيعة** ، ج٤٣ ، دمشق ١٩٤٨ ، ص ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ .

(١٣) ــ رضا قلي خان متخلص ميزخوند . **تاريخ روضة الصفا ناصري** . رقم ١٣٣٩ هـ ، ج ٨ ، ص ٢٣ ، (بالفارسية) .

(١٤)العزاوي . **المصدر السابق** . ج ٤ ، بغداد ، ١٩٤٩ ، ص ص ٤٦ ــ ٤٧ .

(١٥) ــ

P.M. Holt. Egypt and the Fertile Crecent in the Ottoman Period. 1516-1922. London: 1966, P.55.

(١٦) ــ كما يظهر ذلك في البحث .

(١٧) ــ وكانوا قد سيطروا على جزيرة سو قطرة عام ١٥٠٦ .

(١٨) ــ هملتون جب وهارولد بوون . **المجتمع الاسلامي والغرب** . ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ج١ ، ص ١٣٥ .

(١٩) ــ اسماعيل سرهنك . حقائق الاخبار عن دول البحار .ج١ ، القاهرة ، ص ٥٤٧ .

(٢٠) ــ جب وبوون . المصدر السابق . ج١ ، ص ١٣٥ ج٢ ، ص ١٥٥ .

(٢١) ــ د. ليلى الصباغ . **المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني** . دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ص ٩٤/١١٢ .

(٢٢) ــ جب وبوون . **المصدر السابق** . ج ١ ، ص ١٣٥ .

(٢٣)ــ الصباغ . **المصدر السابق** . ص ٩١ .

(٢٤) ــ زكي فهمي . **المصدر السابق** . ص ١٢ .

وهو في نظرنا رأي مبالغ فيه .

(٢٥) ــ لونكريك . **المصدر السابق** . ص ٦٦ .

(٢٦) ــ يقول لونكريك في ص ٣٢ من كتابه السابق الذكر : ان احد الحكام العرب في البصرة كان يدفع اتاوة سنوية الى الشاه .

(٢٧) ــ العزاوي . **المصدر السابق** . ج ٤ ، ص ص ٤٦ ــ ٤٧ .

(٢٨) ــ لونكريك . **المصدر السابق** . ص ٥٨ .

(٢٩) ــ ج.ج. لوريمو . **دليل الخليج ، القسم التاريخي** . ج١ . الدوحة : ١٩٦٧ ، ص ١٠.

(٣٠)ــ لونكريك . **المصدر السابق** . ص ٥٦ . وجدير بالذكر انه حصل عام ١٥٥٠ ان طردت القطيف حاكمها واستنجدت بالعثمانيين لحمايتها من البرتغاليين . **المصدر نفسه** ، ص ٥٨ .

(٣١) ــ **المصدر نفسه** . ص ٥٩ .

٣٢ ــ المصدر نفسه . ص ٤٧ .

٣٣ ــ **المصدر السابق** . ص ص ٥٦ ــ ٥٨ ــ ٥٩.

(٣٤) نظمي زاده مرتضى افندي . **كلشن خلفا** . ترجمة موسى كاظم نورس . النجف الاشرف . ١٩٧١ . ص ص٢٠١ــ٢٠٢.

(٣٥) ــ لونكريك . **المصدر السابق** . ص ٤٧ .

(٣٦) ــ اندلعت الثورة مجددا في منطقة البصرة بعد مضي سنة على حملة اياس باشا المذكورة. في عام ٦٦ ذكر ان الثورة كانت منتشرة في اطراف البصرة وعمدت القبائل خلالها الى قطع الطرق شن الغارات .

انظـر :

نظمي زادة . **المصدر السابق** . ص ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ ــ ٢٠٧ .

(٣٧) ــ د. عبد العزيز نوار . **داود باشا والي بغداد** . القاهرة ، ١٩٦٧ ، هامش رقم(١)، ص ٢٢٣ .

(٣٨) ــ عباس العزاوي . **تاريخ الضرائب العراقية من صدر الاسلام الى اخر العهد العثماني.** بداد ، ١٩٥٩ ، ص ٦٤ .

(٣٩) ــ سرهنك . **المصدر السابق** . ج ١ ، ص ٥٤٧ .

(٤٠) ــ لونكريك . **المصدر السابق** . ص ٥٨.

(٤١) ــ زكي فهمي . **المصدر السابق** . ص ١٢٢ .

(٤٢) ــ العزاوي . **تاريخ العراق** . ج٤ ، ص ص ٦٥ــ٧٠.

(٤٣) ــ سرهنك . **المصدر السابق** . ج١ ، ص ٥٤٩ . ويقول عباس العزاوي في الصفحة ٦٤ ، من كتابه المرسوم تاريخ الضرائب العراقية ان بيري ريس كان موضع الاتهام بسبب تركـــه اقعه في الخليج ومغادرته الى مصر باسطول صغير .

(٤٤) ــ سرهنك . المصدر السابق . ج١ ، ص ٥٤٩ .

(٤٥) ــ انظر تفصيلات مهمة عن رحلته في : العزاوي . **تاريخ العراق** . ع ٤ ، ص ص ٧٩ ــ ٨٠ .

(٤٦) ــ سرهنك . **المصدر السابق** . ج١ ، ص ٥٤٩ .

(٤٧) ــ العزاوي . **تاريخ العراق** . ج ٤ ، ص ص ٧٩ ــ ٨٠ .

(٤٨) ــ لونكريك . **المصدر السابق** . ص ٥٩ .

(٤٩) ــ لونكريك . **المصدر السابق** . ص ٥٩ .

(٥٠) ــ الصباغ . **المصدر السابق** . ص ٩١ ، جب وبوون . **المصدر السابق** .

(٥١) ــ كما يتضح ذلك من خلال البحث .

(٥٢) ــ شاكر صابر الضابط . **العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران** . بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ص ١٨ ــ ١٩ .

(٥٣) ــ عقدت الدولة العثمانية قبل ذلك معاهدتين تجاريتين مع كل من البندقية عام ١٥٢٣ وفرنسا عام ١٥٣٥ . ومع ان المعاهدتين اهدافهما السياسية خاصة فيما يتعلق بالاوضاع السائدة في اوروبا والرغبة المشتركة للاطراف الموقعة على المعاهدتين من اجل اضعاف النمسا . فانه يمكن القول بان المعاهدتين ساهمتا في اضعاف النشاط التجاري البرتغالي والتقليل من نتائجه السيئة على البلاد العثمانية . انظر تفصيلات مهمة عن المعاهدتين في ليلى الصباغ . **المصدر السابق** .ص ص ٩٧ ــ ٩٩ .

(٥٤) ــ سرهنك . **المصدر السابق** . ج١ ، ص ٥٥١.

(٥٥) ــ Raymond Beazley.
Voyages and Travels mainly during the 16th and 17th Centuries. Westminster: 1903, Vol. II, PP. 203. 283-284, Vol. III, P. 326.

(٥٦) ــ
Chapman, Richard. The Voyage of Arther Edwards Agent for the Moscovy Company Voyages. Vol. II, P. 111.

(٥٧) ــ
Richard Hakluyt Voyages. Voyages By Jan Huyghen Van Linschotens Diary of accurrences in the Portuguese Settlements in India 1583-1588. Vol. II, P. 35.

(٥٨) ــ
The Voyages of M. John Eldred: An English Caruer Voyages and Travels mainly during the 16th and 17th Centuries. Vol. I, P. 300.

(٥٩) ــ (٦٠)
"The Voyage at Mr. Ralph Fitch 1583". Op. Cit. Vol. III, PP. 283-284.
"The Voyage of Master Cesar Frederick into the East India and beyond the Indies Anno 1563. Op. Cit. Vol.III, P. 203.

(٦١) —
M Will Barret. "The Money and Measures of Babylon, Balsara, and the Indies, with the Customes". Richard Hakluyt Voyages. Vol. III, P. 329

(٦٢) — المزاوي . **تاريخ الضرائب** . ص ٦٠ .

(٦٣) — **المصدر السابق** . صص ٦١ — ٦٢ .

(٦٤) — لونكريك . **المصدر السابق** . ص ٤٩ .

(٦٥) — ينقل عن سيدي علي قوله عن وجود جنود انكشارية مصريين بين صفوف حامية البصرة . انظر لونكريك . صص ٤٨—٤٩ .

(٦٦) — ذكر ان مدينة البصرة في اواخر القرن السادس عشر تشمل دائرة قطرها ميل ونصف وكانت ابنيتها وقلاعها واسوارها مبنية من الاجر الطيني المجفف تحت اشعة الشمس . لها حاميتها المؤلفة من (٥٠٠) انكشاري مع جنود اخرين يتولون اعمالا مختلفة . وتعتمد قوة المدينة الرئيسية على اسطول من السفن الشراعية ذات المجاذف القوية المجهزة بمدفعية جيدة . وكان عدد السفن يتراوح بين ٢٥ — ٣٠ سفينة . انظر :
The Voyage of Mr. John Eldred. Op.Cit Vol. I, P. 300, Vol. III, P. 326.

(٦٧) — لونكريك . **المصدر السابق** . ص ٤٩ .

(٦٨) — **المصدر نفسه** . ص ٥٠ .

(٦٩) — **المصدر نفسه** . ص ٥٠ .

(٧٠) — مرتضى افندي . **المصدر السابق** . ص ٢٠٩ ، لونكريك . **المصدر السابق** . صص ٥٠ — ٥١ .

(٧١) — نسب الى فهرست مخطوطات ديانة المطبوع في سنة ١٨٦٥ : ان افرا سياب كان لا اغا السكبان (وهم صنف من اصناف الجنود) في البصرة ثم غدا باشا فيها في استعماله القوة والشدة . انظر : يعقوب سركيس . **مباحث عراقية** . بغداد ، ١٩٥٥ ، القسم الثاني ، هامش رقم (٢١) ، ص ٣٨٥ .